إذا عَرَفْتَ اللهَ تعالى عَرَفْتَ مقامك

(خطبة الجمعة للشّيخ عبد الحق شطّاب بمسجد الشّيخ أحمد حفيظ رحمه الله

يوم 16 محرّم 1434هـ الموافق لـ 30 نوفمبر 2012م)

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيِّئات أعمالِنا، من يهدِه الله فهو المُهتد، ومن يُضلل فلن تجِد له وليًّا مرشدًا،

أشهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أنّ مُحمّدا عبدُه ورسوله،

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿01﴾ "سورة النّساء.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿102﴾ "سورة آل عمران.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾ "سورة الأحزاب.

ألا وإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمّدٍ – صلّى الله عليه وآله وسلّم –،

وشرّ الأمور مُحدثاتها، وكلّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلّ بدعة ضلالة، أعاذنا الله من الزّيغ والضّلال،

معاشر الإخوة الكرام، في هذه الجمعة المباركة، نتناول موضوع:

إذا عَرَفْتَ الله تعالى عَرَفْتَ مقامك

حينما تجد الإنسان هذا المخلوق الضّعيف الّذي قال فيه سبحانه:

". . . وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿ 28 ﴾ " سورة النّساء.

وقال سبحانه:

" أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴿ 20 ﴾ " سورة المرسلات.

أي ماءٍ ضعيفٍ حقيرٍ.

وكيف لا يكون الإنسان ضعيفًا والله سبحانه يقول:

". . . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿ 73 ﴾ " سورة الحجّ.

ذبابةٌ تأخذ منه شيئًا فلا يملك أن يفعل لها شيئًا رغمًا عنه، تأخذ ما تشاء وتقع عمّا تشاء من طعامه وعلى وجهه، سواءًا رضِيَ أم سخط.

هذا الإنسان يتجرّأ على القهّار العليم، فواحدٌ يقول: (**الشّريعة لا تصلح لهذا الزّمان**).

وآخرٌ يقول لك: (**لا بدّ أن نلغي الإعدام، لأنّ هذه همجيّة**).

وثالثٌ يقول لك: (**لماذا جعلني الله فقيرًا؟**).

ورابعٌ يقول لك: (**لماذا أذهب الله عنّي بصري؟**).

وخامسة تتبرّم من قضاء الله تعالى فتقول: (**لماذا لم يكرمني الله بزوجٍ؟**).

ومن أكرمها الله بزوجٍ تشكو وترجوا أن يموت زوجها، لترتاح من نكده وظلمه.

وكلّ هؤلاء ما عرفوا الله حقّ المعرفة، لأنّهم لو عرفوا الله علموا كيف يتعاملوا مع الله تعالى، أي كيف يتعاملوا مع قضاءه وقدره وأحكامه وتشريعاته.

قال تعالى متحدّثا عن علمه المطلق:

" قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿ 109 ﴾ " سورة الكهف.

وقوله سبحانه:

" وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ 27 ﴾ " سورة لقمان.

والمقصود بالسّبعة في الآية كنايةٌ عن الكثرة، بل لو كان المداد بحورًا وبحورًا فإنّها تنفد ولا ينفد علم الله تعالى.

وإذا كان هذا علم الله الّذي لا حدود له، فكيف يعترض الإنسان على أحكام الشّريعة، فيخالفها بالقوانين الوضعيّة، إلاّ لأنه يعتقد أنّه يعلم أكثر من علم الله تعالى.

سبحان الله! ومن اعتقد ذلك ضلّ، ولا تنفعه صلاةٌ ولا زكاةٌ ولا حجٌّ ولا صومٌ.

صنفٌ آخرٌ لأنّه يجهل أو يتجاهل أو لبعده عن الله تعالى يسيء الظّن بالله تعالى، فتراه يعترض على قضاء الله وقدره، إذا مرض لماذا؟، إذا نقصت تجارته لا يرضى، إذا طُلِّقَت لا ترضى، إذا مرض إبنها تسخط.

ولذلك فالله جلّ جلاله أعطانا درسًا في سورة الكهف، نتعلّم منها أن لا اعتراض على قضاء وقدر الله، وأن نحسن الظّن بالله تعالى.

ونعتقد أن لله حكمةٌ فيما كل ما قضى وقدر، عَلِمَهَا تلك الحكمة من عَلِمَهَا وجَهِلَهَا من وجَهِلَهَا، قد يحرمك الله ليعطيك وقد يعطيك ليحرمك، يحرمك من توسّع تجارتك خشية أن تترك عبادة ربّك، ويعطيك لأنّك تعاملت بالرّشوة والغشّ وأكل أموال النّاس، يعطيك ويزيدك ليحرمك من يوم القيامة، ويبعدك عنه ويجعل حتفك فيما جمعت من مالٍ:

" وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿ 183 ﴾ " سورة الأعراف.

" وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿ 45 ﴾ " سورة القلم.

قال تعالى :

" أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿ 79 ﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿ 80 ﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿ 81 ﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿ 82 ﴾ " سورة الكهف.

– ولقد حفظ الله بالعلم الّذي رزقه لِلْخِضْرِ سفينة الفقراء.

– وأبدل الوالدان غلامًا بارًّا بهما.

قال مطرف رحمه الله:

(فرح به أبواه حين وُلِدَ، وحزنا عليه حين قُتِل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فَلْيَرْضَ امرؤ بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحبّ).

– أَلْهَمَ الله تعالى الخِضْرَ بعلمه على بناء الجدار لحفظ كنز الغلامين.

وفي الأخير قال الخِضْرُ: " . . . وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي . . . ﴿ 82 ﴾ "، أي باختياري ورأيي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه.

* فالوالدان حرمهما الله من ابن عاقٍّ ليعطيهما الطّمأنينة والسّكينة، ويبدلهما الإبن العاقّ بإبنٍ بارٍّ بهما، محسنٍ إليهما حافظٍ لهما.

* وكان في إتلاف بعض السّفينة حفظًا لحق الفقراء من سلب الملك لها.

* وكان في الإحسان إلى قريةٍ ببناء جدارٍ في مدينتهم رغم عدم إكرامهم للضّيف، كان في ذلك حفظًا لمال الضّعيف.

فلا يملك الواحد بعد هذه القصّة إلاّ أن يسلّم أمره إلى الله تعالى، ولا يعترض على قضاءه.

أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنّه هو الغفور الرّحيم.

الخطبة الثّانية :

إخوتي الكرام،

إذا عرفت أنّ علم الله تعالى مطلقٌ، وأنّ الله رحيمٌ بعباده، وأنّ في تدبير الله تعالى حكمةٌ، لم يبق لك إلاّ التّسليم وحسن الظّن بالله تعالى، ولا تتعلّق حينئذٍ إلا بالله المعطي الرّزّاق الكريم الحكيم العزيز.

روى مسلمٌ وأحمدٌ والتّرمذي، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

قال الله تعالى: (**أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني**).

- وقال ابن حجر رحمه الله في الفتح:

(**أنا عند ظنّ عبدي بي: أجازيه بحسب ظنّه بي، فإن رجا رحمتي وظنّ أنّي أعفو عنه وأغفر له، فله ذلك**).

- قال المناوي رحمه الله في فيض القدير:

(**ظنّ عبدي بي: ظنّ الإجابة عند الدّعاء، وظنّ القبول عند التّوبة، وظنّ المغفرة عند الإستغفار، وظنّ المجازاة عند فعل عبادةٍ**).

فمن كان هذا حاله مع ربّه، أتدرون ما هو جزاؤه؟، ما هو مقامه عند الله تعالى؟.

روى البخاري واللّفظ له، ومسلم وابن ماجة والتّرمذيّ، عن ابن عباس عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال:

(**يدخل الجنّة من أمّتي سبعون ألفًا بغير حسابٍ، هم الّذين لا يسترقون ولا يتطيّرون، ولا يكتوون وعلى ربّهم يتوكّلون**)، زاد التّرمذيّ (**مع كل ألفٍ سبعون ألفًا، وثلاث حثياتٍ من حثيات ربّي عزّ وجلّ**)، قال الألباني صحيحٌ.

عندهم ثلاث صفاتٍ:

1- **لا يشركون:** أي لا يطلبون من غيرهم أن يرقيهم، لكمال توكّلهم على الله، وتعلّق قلوبهم به، وإن كان طلب الرّقية جائزًا.

2- **ولا يكتوون ولا يتطيّرون:** أي لا يتشاءمون.

3- والصّفة الجامعة لهذه الأمور هي كمال التّوكّل على الله تعالى، هؤلاء لهم يقينٌ في الله تعالى، يوحّدونه لا يخشون في الله لومة لائمٍ، لا يطلبون إلاّ من الله تعالى.

-إلتقى رجلان، واحدٌ غنيٌّ منفقٌ، وواحدٌ مؤمنٌ متّصلٌ بالله في المسجد، قال: (**ما جاء بك؟**)، قال: (**حاجةٌ**)، قال: (**ما هي؟**)، قال: (**استحي أن أطلب منك حاجتي في بيت الله**)، فلمّا صَلّيا وخرجا، قال: (**ما حاجتك؟**)، قال: (**لم أطلبها ممّن يقضي الحاجات، فكيف أطلبها منك؟**)، قال: (**ما هي؟**)، قال: (**دخول الجنّة، والنّجاة من النّار**)، قال: (**هذه لا أملكها**)، قال: (**فكيف أطلب ما يملك ممّن لا يملك شيئًا**).

– حينما توحّد الله حقّ التّوحيد، وتتوكّل عليه دون سواه، لا تنبطح لغير الله تعالى، لا تركع لأحدٍ، لا تستجدي احدًا، ولا تخشى في الله لومة لائمٍ، معتقدًا أنّ الأمر من قبل ومن بعد لله تعالى الواحد الأحد، مالك الملك، خالق السّماوات والأرض.

– وهذا الصّنف من النّاس لو أقسموا على الله لأبرّهم، ولا يردّهم لمقامهم العالي الكبير عند الله تعالى.

ثبت في الحديث المتّفق عليه من حارثة بن وهبٍ رضي الله عنه، قال:

سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول:

(**ألا أخبركم بأهل الجنّة، كلّ ضعيفٍ متضعّفٍ لو أقسم على الله لأبرّه، ألا أخبركم بأهل النّار كل عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مستكبرٍ**).

و**العُتُلّ**: هو الغليظ الجافي، و**الجَوَّاظ**: الجموع المنوع وقيل المختال.

وهو الرّجل الّذي لا همّه المناصب، ولا الظّهور وأن يكون له جاهٌ، وإنّما همّه أن تكون له مترلةٌ كبيرةٌ عند الله تعالى.

فأهل الآخرة لا يهتمّون بما يفوقم من الدّنيا، إن جاءهم قبلوه، وإن فاهم لم يهتمّوا به، لأنّهم يعلمون أنّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون، وأن تغيير الحال من المحال، فالأولى التّسليم.

وأذكر مقولة سيد قطب رحمه الله وهو مقبلٌ على إعدامه، فلمّا طُلِبَ منه أن يطلب العفو، قال أنّ اليد الّتي تشهد أن لا إله إلاّ الله لا تطلب العفو.

(**لو أقسم على الله لأبره**): أي لو حلف على شيءٍ، ليسّر الله له أمره حتى يتحقّق ما حلف.

فهو يحلف ثقةً في الله تعالى، ورجاء ثوابه، وحُسْنَ ظنٍّ بالله، ولإدراكه مترلته عند الله تعالى، فهذه الرّبيع بنت النّضر رضي الله عنها الأنصاريّة، كسرت ثنية جاريةٍ من الأنصار، فرفعوا الأمر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأمر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن تكسر ثنية الرّبيع، لقوله تعالى:

" **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ . . . ﴿45﴾** " سورة المائدة.

فقال أخوها أنس بن النّضر رضي الله عنه: (**والله يا رسول الله، لا تُكْسَرْ ثنية الرّبيع**)، فقال: (**كتاب الله القصاص**)، فقال: (**والله لا تُكْسَرْ ثنية الرّبيع**). لا يقصد ردّ حكم الله ورسوله، وإنّما سيحاول مع أهلها حتى يرضوا ويأخذوا الدّيّة، أو يعفو مجّانًا كأنّه واثقٌ من موافقتهم فيسّر الله سبحانه، فعفا أهل الجارية عن القصاصّ، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (**إنّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه**).

اللّهمّ أهدِنا فيمن هديْت وعافِنا فيمن عافيْت وقِنا شرّ ما قضيْت،
اللّهمّ لا تَدَعْ لنا في مَقامِنا هذا ذنبًا إلاّ غفرته، ولا دَيْـنـًا إلاّ قضيْته، ولا مريضًا إلاّ شفيْته، ولا حاجةً من حوائج الدّنيا أو الآخرة لك فيها رضًا ولنا فيها صلاحاً إلاّ قَضيْتها لنا ويَسَّرتَها لنا، يا أرحم الرّاحمين،
اللّهم إنّا نسألك فِعل الخَيْرات، وتَرْك المنكرات، وحُبّ المساكين، وإذا أردت بِقَوْمٍ فِتنةً فتَوَفّنا غير فاتنين ولامفتونين،
اللّهمّ إنّا نسألك حُبَّك وحبّ من أحبّك، وحبّ كلّ عملٍ يُقرِّبنا إلى حبّك،
اللّهمّ اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيّامنا يوم لِقاك،
اللّهمّ لا تأخذنا على حين غِرّةٍ، ولا على حين غفلةٍ،
اللّهمّ إنّك عفوٌّ تحبّ العفو فاعف عنّا، اللّهمّ إنّك عفوّ تحبّ العفو فاعف عنّا،
اللّهمّ انصر الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، واخذُل ودمِّر أعداء الدّين في مشارق الأرض ومغاربها،
اللّهمّ انصر المظلومين في سوريّة وفرّج كربتهم، اللّهمّ انصر المظلومين في سوريّة وفرّج كربتهم،
إنّك على كلّ شيءٍ قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين،
سبحانك اللّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إلــٰه إلاّ أنت، نستغفرك ونتوب إليك.